



# عظة ضد الغضب

للقدیس باسیلیوس الكبير



ترجمة: أمير أبراهيم



إهداء

إلى لروح أبينا الأسقف الشهيد أنبا إيفانيوس

رئيس دير أبو مقار بيرية شبييت

## مقدمة

القديس باسيليوس الكبير هو واحد من الآباء الثلاثة الذين نطلق عليهم الآباء الكبادوكيين الكبار، وهو الوحيد بينهم الذي نلقبه بـ الكبير.

وُلد في مدينة قيصرية عام 330م، من عائلة معروفة بإيمانها المسيحي وتراثها العريق، وقد تلقى أفضل تعليم في عصره. وقدّمت هذه العائلة للكنيسة قديسين عظام مثل: القديس غريغوريوس النيسي، والقديسة ماكرينا، والقديس بطرس أسقف سبسطية، وعلى رأسهم القديس باسيليوس الكبير.

تسلّم الأسقفية على قيصرية بعد نياحة أسقفها يوسابيوس عام 370م. وواجه صعوبات كثيرة في فترة أسقفيته بسبب البدعة الآريوسية، وكان كل ما يشغل قلبه هو وحدة الكنيسة.

ترك لنا العديد من الكتابات، منها:

1- ضد أفنوميوس.

2- عن الروح القدس.

3- رسالة إلى الشباب.

كما له كتابات أخرى وعظات، ومن بينها العظة التي نقدمها إليك، عزيزي القارئ.

ترجع أهمية هذه العظة إلى أنها تتناول موضوع الغضب البشري، الذي يتعرض له كل إنسان، وما ينتج عنه من آثار خطيرة. وقد وصفه القديس يوحنا كاسيان بأنه: «ألم مميت». فالغضب هو أحد أخطر الأمراض التي قد تُصيب الإنسان، إذ يُعنف العقل ويُطفئ نور الروح في داخلنا.

القديس باسيليوس يَحْتَنَّا على أن نوجّه قَوانا الداخلية نحو مشيئة الله. وهذه العظة، رغم مرور القرون عليها، إلا أنها لا تزال  
صالحة ونافعة حتى في زمننا الحاضر.

أطلب من الثالوث القدوس إلهنا أن يبارك هذا العمل، ويجعله نافعا لكل من يقرأه، بصلوات أيينا القديس باسيليوس، وأيينا  
قداسة البابا تواضروس، والآباء المطارنة والأساقفة، وكل الشعب المسيحي. آمين.

هذه العظة مترجمة من كُتاب:

**St. Basil the Great – On the Human Condition**

# خسر الغضب

للقديس باسيليوس الكبير

(1) مثل القواعد الطبية، إذا استُعملت في وقتها الصحيح واتبعت أصول علم الطب، يتجلى نفعها قبل كل شيء من الخبرة، كذلك أيضاً الوصايا الروحية، فإنها تظهر بالحري حكمة ونافعة لتقويم الحياة وتعطي الكمال للذين يعملون بها، متى اقترنت شهادة ثمرتها بالعمل. فقد سمعنا سفر الأمثال يعلن بوضوح: «الغضب يفسد حتى العاقل» [أم 15: 1]، وسمعنا أيضاً الوصية الرسولية: «انزعوا منكم كل غضب وسخط وصياح مع كل خبث» [أف 4: 31]، وكذلك قول الرب إن من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم [مت 5: 22].

والآن، عندما نختبر هذا الانفعال، لا كأمرٍ ينشأ فينا من ذواتنا، بل كهجوم يفاجئنا من الخارج، كعاصفة غير متوقعة، حينئذٍ قبل كل شيء نكتشف سمو الوصايا الإلهية. لأنه عندما نفتح للغضب منفذاً، كما لو كنا نفتح مجرى لنهر هائج، بينما نراقب بهدوء هذا الاضطراب غير اللائق لأولئك الذين استولى عليهم هذا الانفعال، نكتشف من أفعالهم صدق هذه الكلمات: «الرجل الغضوب لا يليق به الكرامة» [أم 11: 25].

فتمت أزيحت العقلانية جانباً، واستولى الهوى على النفس لنفسه، يجعل الإنسان شبيهاً تماماً بالوحش المفترس، إذ لا يترك له أن يكون إنساناً بعد أن فقد عون العقل. فكما أن السم في الحيوانات السامة، كذلك الغضب في أولئك الذين يُستفزون؛ فهم يهيجون كهياج الكلاب، ويضربون كالعقارب، ويعضّون كالحيات. وقد شهد الكتاب المقدس بذلك إذ دعا الخاضعين لهذا الهوى بأسماء الوحوش التي صاروا أمثالها في الشر، إذ يدعوهم «كلاباً بكاء» [إش 56: 10]، و«حيات، أولاد أفاعٍ» [مت

[23: 33]، وما شابه ذلك. لأنّ الذين يتهبّأون لإهلاك بعضهم بعضاً وإيذاء من هم من جنسهم، يُحسبون بحقّ بين الوحوش والحيوانات السامة التي تحمل في طبيعتها عداوة لا تُصالح مع الإنسان.

وبسبب الغضب تنفلت الألسنة بلا ضابط، وتبقى الشفاه بلا حراسة؛ والأيدي المنفلتة تأتي بالإهانات، والتوبيخات، والافتراءات، والضربات، وسائر الأمور التي لا تُحصى، وكلها من أولاد أهواء الغضب والسخط. والغضب أيضاً يجعل السيف جاهزاً للقتال. وتجروّ اليد البشرية على قتل إنسان. ومن خلاله صار الإخوة غرباء بعضهم عن بعض، ونسوا الآباء والأبناء رابطتهم الطبيعية. لأنّ الغاضبين أول ما يجهلونه هو ذواتهم، ثم يجهلون بعد ذلك جميع أصدقائهم. فكما تجتمع السيول الجارفة من الجبال نحو الأودية، فتجرف في طريقها كل ما تلقاه، هكذا الهجمات العنيفة والمنفلتة للغاضبين تحتاج كل شيء.

وأولئك الذين يُستثار غضبهم لا يوقّرون شبيهة الشعر، ولا حياة الفضيلة، ولا القرابة القريب، ولا الأيادي البيضاء التي نالوها من قبل، ولا أي شيء آخر يستحق الإكرام. فالغضب نوع من الجنون القصير العمر. وكثيراً ما يدفعون حتى إلى إلحاق الأذى الظاهر بأنفسهم في غيرتهم على الانتقام، غير مباليين بمصالحهم الخاصة. وكأنهم ملدوغون من كل جانب بذكريات أولئك الذين أحزنوهم، إذ يهيج الغضب ويقفز في داخلهم، فلا يهدأون حتى يصيبوا أذى بمن استفزّهم، أو لعلمهم يصيبون أنفسهم أيضاً بأذى - كما يحدث كثيراً - إذ إنّ الأشياء التي تُحطّم بعنف غالباً ما تتضرر أكثر مما تلحقه من ضرر عندما تُلقى على أجسام صلبة.

...

(2) من يستطيع أن يصف الشر كما ينبغي، أو أن يصوّر كيف أن أصحاب الغضب السريع، إذ يتشبّثون بذريعة عارضة، يندفعون بالصراخ والغضب، ويهجمون كما يهجم حيوان سامّ وحق لا يعرف النجلى؟ فمثل هذا الإنسان لا يتوقف حتى يحدث أذى عظيماً لا شفاء له، كما لو أنّ فقاعة الغضب قد انفجرت، وانسكب منها بلغم حارّ يغلي ويفور. إذ لا السيف القاطع، ولا النار، ولا أي شيء آخر مرعب، يكفي ليوقف النفس التي جُنّت بالغضب، تماماً كما لا يقدر شيء أن يوقف أولئك الممسوسين بالشياطين، إذ لا يختلف الغاضبون عنهم في شيء، لا في المنظر ولا في هيئة النفس.

فالذين يرغبون بشدة في الانتقام، يغلي دمهم حول القلب كما لو كان مضطرباً ومثاراً بسبب نار متقدة. وحين يندفع هذا الغليان ليظهر علناً، يظهر الغاضب بهيئة تختلف عن تلك المعهودة والمألوفة لدى الجميع، وكأنه استبدل وجهه المعتاد بقناع على خشبة المسرح. فالذين حوله لا يتعرفون على نظرته المعتادة في عينيه، إذ صارت نظراته هائجة، وفي عينيه لهب. ويعضّ على أسنانه كما يفعل الخنزير البرّي عند اندفاعه للقتال، ووجهه قد تغير لونه وامتلاً دماً، وجسده المتورّم صار ثقیلاً، وانفجرت عروقه، وأنفاسه تتلاحق بجنون مدفوعة بالعاصفة الكامنة في داخله. صوته صار قاسياً ومشدوداً إلى أقصى حدّ، وكلامه يخرج مضطرباً بلا وعي، مندفعاً بلا ترتيب أو نظام أو وضوح.

ولكن، حين يصبح الغضب لا يُسترضى، مثل لهب تغذيه وفرة الوقود، ويظلّ متمسكاً بالإساءة التي أثير بها، حينئذ يكون المشهد لا يوصف ولا يُحتمل النظر إليه. إذ ترتفع يداه على أقربائه، وتهاجم جميع أعضاء جسده، وتقفز قدماه بوحشية على الأعضاء الحيوية، ويصير كل ما تصل إليه يده سلاحاً للجنون. فإذا صادف مثل هؤلاء شراً مساوياً يقاتلهم من الجهة المقابلة، غضباً آخر وجنوناً مشابهاً، عندئذ يبلغون إلى الضرب والقتال، فيلحقون الأذى ببعضهم البعض، ويقاسون ما يقاسيه أولئك الخاضعون لسلطان مثل هذا الشيطان. فكثيراً ما يكون تشويه الأعضاء أو حتى الموت هو نصيب الغضب الذي يجنيه المتقاتلون. فواحد بدأ الظلم، والآخر ردّ بالمثل، والثاني ألحق الأذى انتقاماً، والأول لم يخضع. وهكذا يُمزق الجسد بالضربات، بينما الغضب ينزع الإحساس بالألم؛ إذ ليس عندهم وقت ليدركوا ما أصابهم، لأنّ كل كيان النفس قد انصبّ على الانتقام ممن أحرزهم.

...

(3) فلا تُدَاوِ الشرّ بالشرّ، ولا تحاول أن تتفوّق على غيرك في هذه الأمور. فإنّ من يتنافس في التفوّق في الشرور، يكون الفائز فيها أشقى حالاً، لأنه يمضي حاملاً خطيئة أعظم. لذلك، لا تكن ممن يُسدّد دين الشرّ كاملاً، ولا من يقترض قرضاً خبيثاً بشرّ أعظم منه. أأهانك أحد بغضب؟ فأوقف الشرّ بالصمت. أمّا أنت، فكأنّك قد قبلت في قلبك سيل غضبه، فصرّت تقلّد الريح، تردّ بنفخ ما حملته إليك.

لا تتخذ عدوك معلماً لك، ولا تحاك ما تكرهه. لا تصر كمرآة تعكس صورة الغضوب، مظهرًا شبهه فيك. هو قد احمر وجهه، لكن هل أنت بلون الخمر؟ عيناه محمرتان بالدم، لكن، أخبرني، هل تبدو عيناك هادئتين؟ صوته قاسٍ، فهل صوتك لطيف؟ حتى صدى الصحراء لا يردّ بنفس وضوح من يصرخ عاليًا، كما ترتدّ الإهانات على من أطلقها. بل إن الصدى يعود كما هو، بينما الإهانة ترجع ومعها زيادة.

فأيّ ألفاظ يتبادلها الشاتمون؟ يقول أحدهم إن الآخر شخص تافه وُلد من تافه، والآخر يردّ بأنه عبد ابن عبد في البيت. أحدهم يقول: "عامل فقير"، فيجيبه الآخر: "متشردّ". أحدهم يقول: "أحمق"، فيرد الآخر: "مجنون"... حتى تنفد سهام ألسنتهم. ثم، بعد أن يطلق اللسان كل إهاناته، ينتقلون إلى الانتقام بالفعل. فالغضب يحرض على القتال، والقتال يولد الشتائم، والشتائم تؤدي إلى الضربات، والضربات إلى الجراح، وكثيراً ما تنتهي الجراح بالموت.

فلنقطع الشر من بدايته، مُزيلين الغضب من نفوسنا بكل وسيلة. لأننا إذا فعلنا ذلك، استأصلنا مع هذا الهوى أكثر الشرور، إذ هو جذر وأصل لها. أأهانك أحد؟ فباركه. أضربك؟ فاصبر. أبصق عليك واحتقرك؟ فتذكر أنك من تراب، وإلى التراب ستعود ثانية (تكوين 3:19). فالذي يطبق على نفسه هذا الفكر مسبقاً، يرى كل إهانة أقل من الحقيقة. وهكذا تحرم عدوك من كل سبيل للانتقام، وتظهر نفسك حصيناً أمام الإهانة، وتقني إكليلاً عظيماً من الصبر، مستثمراً جنون الآخر كوسيلة لصقل نفسك بالنعمة.

فإن سمعتَ كلامي، أضف من عندك على الإهانات بملء الإرادة: إن قال عنك إنك تافه ووضيع ولا شيء، فقل عن نفسك إنك تراب ورماد، فلست أكرم من أينا إبراهيم الذي دعا نفسه كذلك (تكوين 18:27). وإن دعاك أحمق وفقير وعديم القيمة، فقل عن نفسك إنك "دودة" (مزمور 22:6)، ومولود من المذلة كما يقول داود. وأضف إلى هذه الأمثلة صلاح موسى، الذي لما أهانه هرون ومريم، لم يشتك عليهما أمام الله، بل صلى لأجلهما (عدد 12:1 وما بعده). أفلا تختار أن تكون تلميذاً لمثل هؤلاء، أصدقاء الله والمباركين، بدلاً من أن تكون تلميذاً للذين امتلأوا بروح الشر؟

وحين نثار فيك تجربة الشتم، فكّر أنك تُختبر: هل بالاحتمال ستقترب من الله، أم بالغضب ستهرع نحو العدو؟ أعطِ فكرك فرصة اختيار النصيب الصالح. فإنك إما أن تنفع ذلك الشخص بطريقة ما بمثال وداعتك، أو تنتقم منه انتقاماً أشدّ

بالازدراء. فأَيّ شيء أوجع لعدوك من أن يراك فوق الإهانات؟ فلا تُفسد قصدك، ولا تُظهر أنك سهل المنال للشاقيين. دعه ينبج عبثاً؛ ليرتدّ نباحه عليه. لأنّ من يضرب من لا يشعر بالألم إنما ينتقم من نفسه، فلا عدوه أدين، ولا غيظه سكن. وكذلك، من يوبّخ من لا يتأثر بالإهانة، يعجز عن إيجاد راحة لهواه، بل كما قلت، يُطعن في قلبه. وفوق ذلك، في مثل هذه الأحوال، بماذا سيسمّيكَ الناس؟ هو شاتم، وأنت عظيم النفس؛ هو غضوب عسير الاحتمال، وأنت طويل الأناة وديع. هو سيغيّر فكره عمّا قاله، أمّا أنت فلن تندم يوماً على فضيلتك.

...

(4) لماذا أُطيل الكلام؟ إن الإهانة تُقصي صاحبها عن ملكوت السموات، لأنه مكتوب: «الشاقون لا يرثون ملكوت الله» (1 كورنثوس 6:10)، أما صمتك فيبيّن لك الملكوت، لأنه مكتوب: «وأما الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (متى 10:22). ولكن إن أنت انتقمت ورددت الإهانة بمثلها، فبماذا ستحتجّ دفاعاً عن نفسك؟ أبعدر أن الآخر قد استفزك؟ وهل هذا يجعلك أهلاً للمغفرة؟ فإن الزاني الذي يلقي باللوم على معشوقته لأنها أغوته إلى الخطية، لا يكون أقل استحقاقاً للدينونة.

اعلم أن لا أكاليل تُعطى بلا خصوم، ولا هزائم بلا أعداء. أنصت إلى داود القائل: «حين وقف الخاطئ مقابلي»، ولم يقل: «استفززت» أو «انتقمت»، بل قال: «صمتُ وتواضعتُ، وسكتُ حتى عن الكلام الصالح» (مزمو 2:38-3 حسب السبعينية). أما أنت، فتستفزك الإهانة لأنك تراها وقاحةً ورداءةً وسوء أدب، ومع ذلك تقلدها كأنها أمر صالح! ها أنت تملك ذات الهوى الذي تستحقّره.

أترغب أن تحتقر شرّ الآخر، أم تظنّ أن سلوكك الفاسد ليس شيئاً يُذكر؟ إن كانت الشتائم شريرة، فاهرب من تقليدها؛ حقيقة أن الآخر ابتداءً لا تكفي لتبريرك. لذلك، أرى — بل أتيقن — أنه إن كان غضبه أكبر، فذلك لأنه لم يكن أمامه مثال للصبر وضبط النفس. أما أنت، وقد رأيت قباحة الغضب، فلم تحفظ نفسك من التشبه به، بل انزعجت وغضبت في المقابل، فجعلت من انفعالك عذراً لمن بدأ الإهانة. وبهذا، أنت تطلقه من ذنبه، وتحكم على نفسك. فإن كان الغضب شرّاً، فلماذا لم تعرض عنه؟ وإن كان يُعذر، فلماذا تتضايق من الغاضب؟

فإذا جئت ثانياً في تبادل الغضب، فذلك لا ينفك شيئاً؛ لأنه في مباريات المصارعة لا يُكَلَّل من يضرب أولاً، بل من ينتصر في النهاية. وهكذا، لا يُدان فقط من يبدأ الشر، بل أيضاً من يتبعه في طريق الخطية.

افترض أنه دعاك «عاملاً فقيراً». إن كان صادقاً، فأقرّ بالحقيقة؛ وإن كان كاذباً، فما شأنك بكلامه؟ لا تفتخر بالمدح الزائد عن الحقيقة، ولا تغتظ من الإهانات التي لا تنطبق عليك. ألا ترى كيف أن السهام تخترق الأجسام الصلبة والمتصلبة، أما اللينة المنحنية فتكسر حدتها؟ هكذا أيضاً قوة الإهانة؛ فمن يقاومها يأخذها إلى نفسه، أما من يلين ويتراجع، فيبطل شرّها بوداعته.

ولم يزعجك لقب «فقير»؟ تذكر طبيعتك أنك ولدت عارياً وتخرج من العالم عارياً (أيوب 1:21). وأي فقر أشد من العري؟ لم تسمع إذن شيئاً مخيفاً، إلا إذا تبنيت الإهانة لنفسك. وهل اقتيد أحد إلى السجن بسبب الفقر؟ إن الفقر ليس عاراً، بل العار أن لا تحتمله بلطف وصبر. تذكر السيد الذي «إذ كان غنياً افتقر من أجلكم» (2 كورنثوس 8:9).

وإن نُعت بالجهل وال حماقة، فتذكر الإهانات التي وُجّهت إلى «الحكمة الحقيقية» إذ قيل له: «أنت سامري وبك شيطان» (يوحنا 8:48). فإن غضبت، فقد أكّدت الشتائم؛ وأي حماقة أعظم من الغضب؟ أما إن ضببت نفسك، فأنت تفضح من أهانك، وتظهر حكمتك بأعمالك.

أضربت؟ هكذا أيضاً كان الرب. أأهنت بالبصق؟ كذلك كان معلّنا، إذ «لم يحجب وجهه عن الخزي والبصق» (إشعيا 50:6). أأتهمت زوراً؟ كذلك كان الديان العادل. أنزع عنك ثوبك؟ لقد عري ربنا أيضاً واقتسموا ثيابه بينهم (متى 27:31، 35). وأنت لم تُحكم عليك بعد، ولم تُصلب بعد. فما زال أمامك الكثير حتى تدركه بالمحاكاة.

...

(5) ليدخل كل واحدة من هذه الأمور إلى ذهنك، ولتكن حاجزاً يصدّ لهيب الغضب. فبتيئة النفس وإعدادها مسبقاً بمثل هذه التأمّلات، نوقف اضطراب القلب وخفقانه، ونردّ أفكارنا إلى الثبات والهدوء. وهذا بعينه ما قاله داود: «تهبأت ولم أضطرب» [مز 119:60].

وعليه، يلزم أن نكبج حركة النفس الهائجة المأسورة بالهوى، عبر تذكّر أمثلة الرجال المباركين: كيف احتمل العظيم داود بهدوء جنون شتم شمعي. فلم يُفسح مجالاً لتحرك الغضب، بل حوّل فكره نحو الله قائلاً: «الرّب قال لشمعي: سبّ داود» [2 صم 16: 10]. ولهذا، عندما سمع نفسه يُدعى «رجل دماء» و«رجل بليعال»، لم يتضايق، بل تواضع وقبّل الإهانات كما لو كان مستحقاً لها.

انزع من نفسك هذين الموقفين: ألا ترى نفسك أهلاً للأمور العظيمة، وألا تعتبر إنساناً آخر أدنى منك كثيراً في القيمة. إذ ذاك، لن ينهض غضبنا ضد الإهانات التي تُوجّه إلينا.

إنه أمر مُرّ أن يكون من نال إحسانات عظيمة ويدين بجميل كبير، جاحداً للجميل، ويبدأ - إضافة إلى ذلك - بتوجيه الإهانات والتحقير. هو أمر مُرّ، لكن أكثر مرارة لمن يفعله لا لمن يُقاسي شرّه. فليُهنك من شاء، لكن لا تُهن أنت أحداً. واجعل ما يُقال مدرسة رياضية تتدرّب فيها على الفلسفة.

إن لم يُصّبك سُمّ الإهانة، فلست مجروحاً. أما إن شعرت بألم في نفسك، فأخف ما يُوجّعك بداخلك. لأن المرتل يقول: «اضطرب قلبي في داخلي» [مز 143: 4-7 حسب السبعينية]، أي أنّه لم يُطلق الهوى إلى الخارج، بل كبّحه، كما تنكسر الموجة على الشاطئ.

أسكت عن صخب قلبك الهادر والغاضب. وتحترم أهواؤك حضور العقل فيك، كما يحترم الطفل المشاكس قدوم الرجل الموقر.

فكيف نفرّ إذن من ضرر الغضب؟ نقنع طبعنا الحادّ ألا يسبق الفكر في الفعل، بل نحرسه أولاً لئلا يسبق العقل أبداً؛ ونقيه كحصان تحت النير، مطيعاً للعقل كما لو كان لجأماً، لا يتعدّى حدّه، بل يُقاد حيث يوجّهه العقل.

وفوق ذلك، فإن قوّة الحِدّة في النفس نافعة لنا في كثير من أعمال الفضيلة. مثل جندي يضع سلاحه في عهدة قائده، تُسرّع هذه القوّة لتقديم العون فيما يؤمر به، يمكنها أن تكون حليفاً للعقل ضد الخطيئة. لأن الحِدّة هي وتر النفس، تبعث فيها القوّة لإنجاز الأعمال الصالحة.

وحين ترتخي النفس باللذة، كما يُقوّى الحديد بالتقسية، تعيدها هذه القوة من اللين والرخاوة إلى الصرامة والشجاعة. وإن لم يُستثر طبعك الحادّ ضد الشرير، فلن تقدر أن تكرهه كما يستحق. فأنا أرى أنه يجب أن يكون لدينا الحماس ذاته في محبة الفضيلة وفي كراهية الخطيئة. ولهذا، فالحدة مفيدة جداً، متى لزمت صوت العقل وسارت وراءه مثل كلب بجانب راعٍ، تظل وديعة وهادئة مع من يعينها، جاهزة لنداء العقل، لكنها تكون شرسة ضد الصوت الغريب والوجه الغريب، حتى لو بدا وكأنه يُحسن، بينما تخضع حين يدعوها صديق أو رفيق.

إن تعاون هذه القوة مع الجزء العاقل من النفس أمرٌ بديع وملائم للغاية. إذ يكون الإنسان غير قابل للمصالحة مع ما يُدبر ضده، لا يقبل مودةً نحو ما هو ضار، بل كالذئب يعوي ويمزق لذةً معروضة عليه. وهكذا هي فائدة الحدة لمن يُحسن استعمالها.

فكل قوة من قوى النفس، بحسب طريقة استعمالها، يمكن أن تكون شراً أو خيراً لصاحبها. فمثلاً، قوة الشهوة في النفس: من يستخدمها لإشباع الجسد والتلذذ بالنجاسات، يكون دينياً فاسقاً؛ أما من يوجهها نحو محبة الله والشوق إلى الخيرات الأبدية، فيكون محموداً مباركاً. وكذلك العقل: من يستخدمه حسناً يكون حكيماً فطناً، أما من يستعمله لإيذاء قريبه، فيكون عامل شرٍّ وإثم.

...

(6) إذن، فلنحوّل القوى التي منحنا إياها الخالق لخلاصنا إلى بدايات خطيئة على أنفسنا. فهكذا أيضاً، الغضب (أو الحدة) إذا تحرك حين يلزم وبالقدر الذي يلزم، ينتج الشجاعة والمثابرة وضبط النفس؛ أما إذا عمل ضد العقل السليم فإنه يصبح جنوناً. ولهذا السبب أوصى بالمزمور قائلاً: «اغضبوا ولا تخطئوا» [مز 4:5]. والرب توعّد بالدينونة على الذين يغضبون بلا سبب [مت 5:22]، لكنه لم يرفض استخدام الغضب في الأمور الضرورية كدواء. فإن الكلمات: «وأضع عداوة بينك وبين الحيّة» [تك 3:15]، و«كونوا أعداء المديانين» [عد 25:17]، تعلمنا أن نستعمل الغضب كسلاح.

ولهذا السبب موسى، الأودع بين جميع الناس [عد 12:3]، حين عاقب عبادة الأوثان، وضع السيوف في أيدي اللاويين لقتل إخوتهم، وقال: «ليضع كل واحد سيفه على نخذه، ومرّوا جيئةً وذهاباً من باب إلى باب في المحلة، وليقتل كل واحد

أخاه وصاحبه وقريبه» [خر 32:27]. وبعد قليل قال: «قد كرّستم اليوم أيديكم للرب، كل واحد في ابنه وفي أخيه، لكي يُعطيكم اليوم بركة» [خر 32:29].

وما الذي جعل فينحاس باراً؟ أليس غضبه العادل على الزناة؟ فهو، رغم لطفه ووداعته، حين رأى زنا زمبري والمرأة المديانية وقد صار عليهما بلا حياة، ولم يخفوا المنظر القبيح لعارهم، لم يتردد بل استخدم حِدّته في موضعها، فطعنهم برمحهم كليهما [عد 25:6-8].

ألم يفعل صموئيل كذلك حين أبقى شاول على حياة أجاج ملك عماليق مخالفاً أمر الله؟ ففي غضب عادل، قدّمه وقطّعه بالسيف [1 صم 15:33]. وكذلك إيليا الغيور قتل أربعمئة وخمسين من كهنة البعل، وأربعمئة من كهنة السواري الذين كانوا يأكلون على مائدة إيزابل، وذلك بحِدّة متزنة وحكيمة، لفائدة كل إسرائيل [1 مل 18:22-40].

أما أنت فتغضب على أخيك بلا سبب. وكيف لا يكون بلا سبب حين يكون الدافع هو مجرد استفزازه لك؟ فأنت بهذا تشبه الكلاب التي تعضّ الحجارة إذ لا تصل إلى من يرميها. فالذي يفعل به الشر يستحق الشفقة، وأما الفاعل فيستحق الكراهية. وجّه غضبك نحو قاتل البشر، وأبو الكذب، وعامل الإثم، لكن أشفق أيضاً على أخيك، لأنه إن استمر في خطيئته فسيسلم مع الشيطان إلى النار الأبدية.

وكما أن الغضب والحِدّة (الطبع الحاد) كلمتان مختلفتان، فكذلك معناهما يختلف كثيراً. فالحِدّة هي نوع من التسخين السريع وتساعد بخار الانفعال، أما الغضب فهو حزن دائم ودافع باقٍ نحو الانتقام من الظالمين، كأن النفس تشتي القصاص. لذلك ينبغي أن نعرف أن البشر يخطئون بكلاً الحالتين: إما بالانفعال المجنون والمتقلب بسبب الاستفزازات، أو بالمكر والخداع مترصدين لمن أساء إليهم. ويجب أن نحترس من كلا الخطأين.

(7) إذًا، كيف يمكن لهذه العاطفة (الحدة أو الغضب) أن نتجنب التوجه نحو ما يجب اجتنابه؟ كيف؟ يمكن ذلك إذا تدرّبت مسبقًا على التواضع الذي أوصى به الرب بالكلمة وقدم المثل عليه بالفعل، إذ قال في موضع: «من أراد أن يكون أولاً فليكن آخر الجميع» [راجع مر 9:35]، وفي موضع آخر، وهو وديع غير متزعزع، احتمال من ضربه [يو 18:22-23].

نخالق السماء والأرض وسيدها، الذي تعبده كل الخليقة العاقلة والمحسوسة، والذي «يحمل كل الأشياء بكلمة قدرته» [عب 1:8]، لم يرسل ذاك الشرير حيًّا إلى الهاوية بانشقاق الأرض تحته، بل وبخه وعلمه قائلًا: «إن كنت قد تكلمتُ شرًّا فاشهد على الشر، وإن كنت حسنًا فلماذا تضربني؟» [يو 18:23].

فإن كنتَ قد اعتدت أن تكون آخر الجميع بحسب وصية الرب، فتي ستغتاز من إهانة كرامتك؟ عندما يسبك طفل صغير، تكون الشتائم سببًا للضحك، وعندما يتكلم شخص أصابه التهاب دماغي فأفقدته عقله بكلمات ازدراء، فإنك تعتبره أهلاً للشفقة لا للكراهية. وهكذا، فإن حركة الحزن لا يولدها الكلام المهين في ذاته، بل كبريائنا على من أساء إلينا، والخيال الذي لدى كل واحد منا عن نفسه. فإذا وضعت جانباً من فكرك هذين الأمرين، بدت لك ضوضاء الكلمات الملقاة عليك كصدى فارغ.

لذلك: «كفّ عن الغضب وارك الحدة» [مز 37:8]، لكي تغفلت من الدينونة على الغضب، تلك التي «تعلن من السماء على كل جفور وظلم الناس» [رو 1:18]. لأنه إن استطعت بالفكر المتزن أن تقلع الجذر المرّ للحدة، فسوف تزيل معها كثيراً من الأهواء التي تبدأ من هذا المصدر. فالمكر، والظن السيئ، وعدم الأمانة، والخبث، والغدر، والتهور، وكل طائفة هذه الشرور، إنما هي فروع من هذا الشر.

فلنبعد عنا إذاً مثل هذا الشر العظيم، فهو مرض للنفس، وتعيم للأفكار، وابتعاد عن الله، وجهل بالقرابة، وسبب للخصام، ومجمع للبصائب، وشيطان خبيث يولد في داخل نفوسنا. وكأن سائناً وفقاً قد استولى سلفاً على داخلنا وأغلق مدخل الروح القدس. لأن حيثما توجد العداوة والخصام والحدة والمجادلة والمنازعة والضجيج الدائم في النفس، هناك لا يستقر روح الوداعة.

فلنُصِغْ إلى نصيحة الطوباوي بولس، ولنطرح عنا كل غضب وحدة ونجيج مع كل خبث [أف 4:31]، ولنصر لطفاء  
ورحماء بعضنا نحو بعض، منتظرين الرجاء المبارك الموعود للودعاء. لأن «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض» [مت 5:5]،  
في المسيح يسوع ربنا، الذي له المجد والسيادة إلى دهر الدهور. آمين

